مهاتما غاندي

— ٤ —

— طلب العلم في لندن —

غندي في السجن او خارجه قوة تحاذر . ففي بلاد يكثر فيها الجوع ، أيقام لصومه وزن كبير . فتتحرك طبقات الهندوس وتهتز الامبراطورية البريطانية وتردد اصداءه وانباءه صحف العالم في الشرق والغرب . ولا يخفى ان غندي نقل الى سجن يونا ، بعد اشتراكه في العصيان المدني ، على اثر انتهاء مؤتمر الدائرة المستديرة في يناير الماضي . ينام فيه في الفضاء ويستيقظ في الساعة الرابعة كل صباح ليقوم بفروض الصلاة ، ثم يمشي نحو ساعتين في حظيرة لا يزيد طولها على مائة ذراع ، ويغزل القطن ثم يحلجه

وماذا يطالع غندي في سجنه ؟ لقد قرأنا في احدى صحف الغرب انه قرأ في خلال العام الماضي التوراة والانجيل — طبعة الملك جيمس — والقرآن . ثم كتب كارلايل ورسكن الانكليزي وتولستوي الروسي وثورو الاميركي

ويقال ان حكومة الهند عينت خمسة عشر قرشاً لتنفق على طعامه وما يحتاج اليه في السجن ولكنه لا ينفق منها اكثر من خمسة قروش لانه لا يتناول الا الخبز ولبن الماعز

وكنا قد نشرنا في مقتطف ابريل ومايو ويونيو ثلاثة فصول في طفولة غندي وحداثته تلخيصاً عن الكتاب الذي كتب فيه سيرته بالاشتراك مع المستر اندروز الانكليزي . وهذا فصل رابع يصف فيه حياته في انكلترا في اثناء طلب العلم فيها جدير بان يطالعه كل شاب يطلب العلم في انكلترا او غيرها

زار دكتور « مهتا » حجرتي وتفقد محتوياتها ، ثم هزّ رأسه علامة على عدم الرضا عنها ثم قال « هذا المكان لا يليق . إننا لا نحب لندن للدرس ، بقدر ما نحبها لممارسة الحياة والعادات الانجليزية . ولهذا يجب عليك ان تعيش في اسرة . ولكن قبل ان تتقدم على هذا اظن انه يحسن بي أن اعهد بك لاحد اصدقائي لتدرس الحياة وتمرن عليها »

ولقد قبلت هذا الاقتراح بكل شكران ، وانتقلت توًّا الى مسكن ذلك الصديق . وكان هذا الصديق مثال الرأفة والتيقظ ، فعاملني معاملة الأخ وأخذ يعلمني اصول السلوك الانجليزي . على ان غذائي اصبح مسألة ممضة . وكنت لا استسيغ الخضر المسلوقة من غير توابل . وتحيرت ربة البيت فيما يمكن أن تجهز لي من غذاء . وكنا نتناول عصيدة القرطم للافطار فكانت كافية ، ولكنني كنت اشعر بالجوع في وجبتي الظهر والمساء . وحاول صديقي الذي عهد بي اليه دكتور « مهتا » أن يغريني بأكل اللحم ، ولكنني كنت اذكر له عهدي الذي عاهدت عليه امي ، واظل صامتاً . اما وجبتا الظهر والمساء فقد

اعتدنا ان نتناول فيهما الاسفناخ والخبز والمرق . وكانت شهيتي غالباً ما تقوى . ولكني كنت اخجل من ان اطلب اكثر من قطعتين او ثلاث قطع من الخبز ، معتقداً انهُ ليس من حسن الذوق أو الادب في شيء ان افعل غير هذا . وكنا لا نتناول اللبن في غير الصباح . ولقد امتعض صديقي يوماً من هذه الحال فقال لي بصراحة : « لو أنك كنت اخي ، اذن لامرتك بالاسراع في حزم امتعتك . ما هي قيمة عهد تعاهد عليه أمّاً غير مثقفة جاهلة بمجرى الاحوال هنا . ان عهدك هذا ليس عهداً على الاطلاق . انهُ لا يعتبر عهداً صحيحاً امام محكمة قضائية . وصبرك على الاخذ بمثل هذا الوعد ليس اكثر من خيال ووهم فارغ . وعكوفك عليه لا يعود عليك بأية فائدة هنا . انك اعترفت انك اكلت اللحم ، وتذوقتهُ . فعلت هذا في وقت لم يكن اكل اللحم فيه ضرورياً ، وتمتنع عنهُ في وقت تدعوك الحاجة اليه ». ولكني ظللت صلباً ولم تلن قناتي

وكثيراً ما كان يستمر هذا الصديق في سرد براهينه ، ولكن كان عندي قوة سالبة استقرت في نفسي اواجههُ بها كلما لجّ في الكلام والتدليل على صحة رأيه . وكان كلما امعن في محاورته ، امعنت في عنادي . وكنت اصلي لله كل يوم ليحميني ، فحماني . ولم يكن عندي اية فكرة بينة في الله . بل كان مجرد إيمان اثمر اثره . اما هذا الايمان فقد غرستهُ في نفسي مربيتي

عثرت خلال تجوالي في المدينة على مطعم للنباتيين في شارع فرنجدون. وكان لمجرد وقوع نظري عليه هزة فرح في نفسي كتلك الهزات التي يشعر بها الاطفال لدى عثورهم على شيء تعلقت به قلوبهم الطاهرة . ورأيت قبل ان ادخل المطعم ومن وراء الزجاج ، كتباً عرضت للبيع ومن بينها كتاب « صولت » الذي عنوانهُ « الدعوة للحياة النباتية » فاشتريتهُ بشلن واحد ودلفت تواً الى حجرة الطعام . وهنالك تناولت اول وجبة ارضتني منذ هبطت أرض انجلترا ، وشعرت بان الله ساعدني وأخذ بيدي

قرأت كتاب « صولت » من ألفهِ الى يائهِ ، فأثر فيّ كل تأثير ولما قرأتهُ ، اصبحت نباتياً بالاختيار ، واني لاُبارك ذلك اليوم الذي عاهدت فيه أمي على ذلك العهد . ولقد كنت امتنع من قبل عن اكل اللحم احتراماً للصدق والعهد الذي قطعتهُ لامي ، ولكني كنت أرغب من كل قلبي في ان يصبح كل هندي من اكلة اللحوم . وكنت اتطلع الى حلول الوقت الذي اكون فيه واحداً منهم أتناول الأمر بحرية وجهر وادعو غيري اليه . ولكنّ اختياري الآن مال بي الى ناحية الحياة النباتية والتبشير بها اضحى كل همي

وظهر لي ان الملابس التي قدمت بها من « بومباي » لا تراتق ذوق المجتمع الانجليزي فبدلتها بملابس أوصيت عليها في مخازن الجيش والبحرية . واشتريت قبعة حريرية كلفتني تسعة عشر شلناً . ولم اكتف بهذا فانفقت عشرة جنيهات على بذلة للسهرة اوصيت عليها في

محل « بوند ستريت » وكتبت لاخي ليرسل اليَّ سلسلة ذهبية . ورأيت انهُ ليس من حسن الذوق ان ألبس رباط رقبة مربوطاً ، فتعلمت كيف اربط رباط الرقبة بعد مرانة عليهِ . ولم اعتد في الهند النظر في المرآة ، بل كانت المرآة من ادوات الترف لا انظر فيها إلاَّ في اليوم الذي يزورنا فيهِ حلاق الاسرة . اما في لندن فكنت اقضي كل يوم عشرة دقائق امام مرآة كبيرة ، انظر فيها كيف أعدل رباط رقبتي وامشط شعري على طريقة مألوفة ولم يكن شعري ناعماً فكانت تقوم في صبيحة كل يوم معركة مع المشط والفرشاة حتى يستقيم وتسفر المعركة عن تصفيفهِ بطريقة منتظمة . وكنت في كل فترة اخلع فيها القبعة او اضعها فوق رأسي ، تمر يدي على شعري بطريقة اوتوماتيكية لاصلح شعري واحفظ نظامه

وكل هذا ايضاً لم يكن كافياً . فبدأت اوجه انتباهي الى تفاصيل أخرى . فرضت أني اذا عكفت عليها استطعت ان اخرج من نفسي سيداً كريماً (جنتلمان) على الطراز الانكليزي . وقيل لي انهُ من الضروري ان اتلقى دروساً في الرقص واللغة الفرنسية وفن الالقاء . فصممت على ان ادرس الرقص في معهد ، ودفعت ثلاثة جنيهات اجرة على دورة لتعلم الرقص مداها ثلاثة أسابيع . وكنت احتاج الى ستة أسابيع لاعرف كيف أرقص ولكني وجدت اني عاجز عن أن اقوم بحركات متزنة مؤتلفة ، لاني لم اكن استطيع ان اتبع توقيع البيانة ، فيستحيل عليَّ ان أوفق بين حركة اقدامي وتقسيم التوقيع . ولكن ماذا أفعل ؟ تروى اسطورة ان ناسكاً احتفظ بهرة في منسكه ليقاوم الفئران ، ثم ببقرة لتغذي الهرة بلبنها ، ثم برجل ليخدم البقرة ، وهكذا . ولا ريبة في ان مطامعي اخذت تتكاثر ويتبع بعضها بعضاً ، مثل الناسك . ففكرت في أن اتعلم العزف على الكمان حتى أعوّد اذني على أنغام الموسيقى الغربية وترقيماتها . فاشتريت كماناً بثلاثة جنيهات واضفت الى الجنيهات الثلاثة مبلغاً من المال اجراً لمعلمة ؛ واخذت ابحث عن معلم ثالث ليعلمني فن الالقاء ، ودفعت لهُ جنيهاً لأبدأ عليهِ درسي وامرني بان اشتري كتاب « بل » — Bell — في فن الالقاء ، فاشتريتهُ غير وانٍ

غير ان كتاب « بل » هذا كان اول شيء قرع « الناقوس »[1] في أذني فصحوت من هذه الغفوة النفسية . قلت في نفسي « انك سوف لا تقضي عمرك في انجلترا ، فما الفائدة في تعلم فن الالقاء » ? والآن « هل من الممكن أن أصبح بتعلم الرقص جنتلماناً » ? والكمان عجزت عن تعلمها حتى في الهند . وما دمت في طور التلمذة ، فيجب عليَّ ان اعكف على دروسي فاذا أهلت بي اخلاقي لان تخرج مني جنتلماناً فهذا خير من كل ما عداه . وعلى هذا اوجبت على نفسي أن أترك كل هذه الاشياء

اكتنفتني هذه الافكار ومثيلاتها ، وكتبتها في خطاب ارسلت بهِ الى معلم فن الالقاء

(١) بين كلمة « بل » وهو اسم مؤلف الكتاب وكلمة ناقوس جناس ، لان الناقوس في الانجليزية اسمه « بل »

راجياً ان يعفيني من اتمام دروسي . ثم ارسلت بخطاب آخر الى معلم الرقص ، وذهبت بنفسي الى معلمة الكمان ، لاعتذر اليها ولاقول لها بأنها تستطيع ان تتصرف في الآلة الموسيقية بأي ثمن يمكن الحصول عليه . كانت مخلصة وودودة ، فأخذت اظهر لها كيف أني تبينت اخيراً اني انما اتبع املاً خاطئاً ، فشجعتني على ان اتابع ما صممت عليه من تغيير خطتي تغييراً كاملاً.
ولقد استمرَّ ولعي بهذه الاشياء ثلاثة اشهر، اما المحافظة على هندامي فقد استمرَّ سنين عديدة ولكني رجعت على كل حال تلميذاً ، بعد أن تخليت عن افتتاني هذا

وليس من حق احد ان يظن أن تجاربي في تعلم الرقص وامثاله من الاشياء كان طوراً من اطوار الانغماس في الملذات قطعتهُ في حياتي . فاني حتى في اثناء ولعي بهذه الاشياء ، كنت مالكاً لكل قوى نفسي ، ولم يتجرد طور افتتاني بهذه الخيالات من تأمل عميق كنت اقع صريعه اثناء بعد الفينة . وكنت اقيد حسابي فلا اهمل ذكر المليم والدانق الذي أصرفهُ .
وبدأت اناقش نفسي في نفقاتي ، فاستبان لي انهُ من الضروري ان اقتصد . وعلى هذا صممت على ان أختزل نفقات حياتي الى النصف . فقد استبان لي من مناقشة الحساب أن ابواباً كثيرة تذهب أجوراً . ووجدت من جهة اخرى ان معيشتي في وسط اسرة يستدعي ان ادفع حسابي كل اسبوع . فاقلعت عن عادة التحبب الى افراد الاسرة بدعوتهم الى الطعام، كما رفضت ان اقبل دعواتهم اذا انصرفوا الى النزهة او اللهو . وكل هذا كان يستدعي زيادة في النفقات. فاذا كانت رفيقتك في النزهة سيدة وجب عليك ان تقوم بكل النفقات. وظهر لي ايضاً ان الاكل خارج المنزل كان اسرافاً ، لان كل الوجبات التي لا اتناولها في المنزل لا تنقص من الحساب الاسبوعي شيئاً . ولماذا لا اوفر على نفسي كل هذه الابواب ؟

صممت على ان اؤجر حجراً مستقلة ، بدل ان اعيش مع اسرة ، وبذلك اتمكن من الانتقال من مكان الى آخر على مقتضى طبيعة اعمالي التي اقوم بها ، فاكسب تجربة وعلماً .
فانتقيت الغرف التي اجرتها بحيث كانت لا تبعد عن محل عملي اكثر من نصف ساعة مشياً على القدم ، وكذلك اخذت اقتصد في الاجور التي أنفقها . وكنت قبل ذلك لا انتقل من مكان الى آخر الا راكباً ، قائلاً اني استطيع ان اقتصد من الوقت ما اقضيه في النزهة ماشياً . اما الترتيب الجديد فكان نزهة واقتصاداً ، إذ استطعت ان اقتصد اجور الانتقال وان اقطع كل يوم ثمانية او عشرة اميال سعياً على قدميَّ . ولقد أفادتني عادة المشي فوائد جلى ، فحفظتني من الامراض طيلة مقامي في انجلترا ، واكسبتني قوة في البدن وشدة في الاصلاب

حدث بعد هذا بقليل ان قرأت كتباً في الحياة البسيطة ، سارعت بعدها الى ترك حجراتي واستأجرت بدلاً منها حجرة واحدة مهيأة بمدفأة ، ومضيت اجهز افطاري بنفسي وفي حجرتي ، ولم يكن يشغلني هذا اكثر من عشرين دقيقة ، اذ لم يكن لي من حظ في وجبة الصباح اكثر

من عصيدة القرطم وماء ساخن لنكاكاو. وبهذا استطعت ان اعيش بشلن وثلاثة بنسات كل يوم . وكان هذا الوقت وقت اكباب على الدرس وافتتان به . ولقد وفرت عليّ هذه الحياة البسيطة كثيراً من وقتي ، فاجتزت الامتحان . على ان هذا الاقتصاد لم يجعل حياتي جافة كما يخيل الى البعض . بل على النقيض من هذا ، فان التغيير الذي ادخلته على نمط حياتي اكسبني الفة تحت حياتي النفسية والجسمية . بيد أن الطريقة التي اتبعتها كانت تلائم موارد اسرتي ، فضلاً عن أنها كانت اقرب للاستقامة ، فعمّ نفسي بذلك فرح لا يوصف

منذ اربعين سنة خلت لم يكن في لندن من الطلاب الهنود سوى عدد ضئيل . وكانت العادة ان يعيش هؤلاء عيش العزوبة ولو كانوا متزوجين . ذلك لانه يشترط في طلاب المدارس والجامعات ان يكونوا غير متزوجين ، لانهم يعتقدون هنالك ان حياة الطلب والدرس لا تتفق مع الزواج . وكانت لنا هذه العادة في الهند خلال الازمان القديمة ، ولكنا استبدلناها في العصور الحديثة بتزاوج الاطفال . وهي عادة غير معروفة في انجلترا . وكثيراً ما كانت تبدو حمرة الخجل وجوه شباب الهند عندما يضطرون الى الاعتراف بانهم متزوجون . ولقد احدثتني عدوى هذه العادة فقيدت اسمي أعزبا ، على الرغم من اني كنت متزوجاً ولي ابن . ولكني لم أكن سعيداً بان اشعر اني خادعت ورائيت . ولكن خجلي وصمتي وتكتمي ، كل هذه الاشياء حملتني على ان أدلف الى اعماق اشد غوراً

كنت مرة في صحبة اسرة من « فنتور » امضي اجازتي . والعادة في مثل هذه الاسر ان تصحب الفتاة بنت صاحبة البيت ضيوف اهلها للنزهة والترييض . فاصطحبتني الفتاة يوماً الى تلال جبلية هادئة تحيط ببلدة « فنتور » ولست ممن يتئدون في المشي ، ولكن رفيقتي كانت اسرع مني خطواً ، فجرتني وراءها واخذت تثرثر طيلة الوقت . وكنت اجيب على ثرثرتها المرة بعد المرة بكلمة «نعم» او « لا » ، وفي بعض الاحيان بكلمة «نعم ما اجمل هذا او ذاك». وكانت كأنها طير يطير ، وظللت أفكر متى نعود الى المنزل بعد ان ضربنا في المسير وبلغنا قمة تل . ولكنا لم نكد نعتلي القمة حتى اخذت افكر كيف نهبط مرة اخرى . وعلى الرغم من حذائها العالي الكعب ، فان هذه السيدة التي كادت تتجاوز من العمر الخامسة بعد العشرين ،هبطت من فوق التل كأنها سهم زل عن كبد القوس . اما انا فكنت في حيرة الخجل أجاهد لاهبط ذلك المرتقى الوعر . ووقفت هي تبتسم وتشجعني وتعرض عليّ ان تأتي لتجدني . وبكل ما يمكن ان يتصور ذهني من الصعوبة اخذت اعالج الامر فأتساند مرة وأزحف على ركبتي اخرى حتى استطعت ان اهبط الى سفح التل ، فصاحت عاليه فيها « برافو » . ولكن ضحكاتها اوقعتني في خجل مرير لا استطيع وصفه

غير اني لم استطع ان افلت من غير إضرار . لان الله اراد ان يخلصني من مرض الكذب والبهتان

ذهبت مرة الى « برنْشْنْ » ، وقابلت هناك أرملة عجوزاً معتدلة الثروة . حدث هذا خلال السنة الاولى من اقامتي في انجلترا . وكان جدول الطعام في الفندق مكتوباً بالفرنسية التي لا اعرف منها الا القليل . وجلست الى المائدة التي جلست اليها هذه الارملة . وقد لحظت اني غريب واني مرتبك ، فسارعت الى مساعدتي . بادرتني قائلة : « يظهر انك غريب وانك مرتبك . لماذا لم تطلب شيئاً ما » ؟ فشكرتها وافضت لها عن الصعوبة التي تعترضني لأني لا استطيع ان اميز بين الوان الطعام وأيها يتفق وخطة النباتيين لأني لا اعرف الفرنسية الا جهداً فقالت : « اسمح لي ان اساعدك . سأوضح لك الالوان وارشدك الى ما تأكل » .

وكانت هذه بادرة علاقة استحالت الى صداقة استمرت طوال مقامي في انجلترا وزمناً طويلاً بعدها . واعطتني عنوانها في لندن ودعتني الى الغداء في بيتها كل يوم احد ، فكانت تحتفي بي وتقدمني الى فتيات وتحملني على الاشتباك معهن في الحديث . وكان من بينهن على الاخص سيدة فتية كانت تقيم معها ، وغالب ما كانت تتركنا معاً في وحدة شاملة

شعرت اولاً بان الامر شاق متعب . فكنت لا استطيع ان ابدأ حديثاً ، ولا اقدر على ان اشترك في فكاهته . ولكن هذه السيدة الفتية قادتني الى الطريق ورسمت لي الخطة . وبدأت اتعلم . ومع مرور الزمن بدأت اتشوق الى يوم الاحد من كل اسبوع ، واخذت أميل الى التحدث الى صديقتي الشابة

واخذت الارملة العجوز تمد اطراف شباكها يوماً بعد يوم . كانت تظهر الاهتمام بمقابلاتنا . وليس من البعيد انها كانت تختط من حولنا خطة تحاول تنفيذها . فتولتني حيرة مزعجة . كيف اقوى على ان اخبر ربة البيت باني متزوج ؟ غير اني تمنيت لو اني اخبرتها . اذن رأيت ان من الصعب عقد خطبة بيننا . ولكن الوقت لم يكن قد فات بعد . ورأيت ان اعلان الحق كفيل بان يوفر عليّ تعباً اكبر من التعب الذي اشعر به . وبهذه الفكرة كتبت لربة البيت خطاباً جاء فيه :

«لقد شملتني عطفك منذ ان تقابلنا في برنْشْنْ لاول مرة ، حتى انك عنيت بي كما تعنى الام بابنها ، وفكرت في ان ازوج ، واخذت تقدميني لفتيات لأعقد معهن يوماً اواصر الالفة والصداقة . ولاني لارغب في ان تتمادى الامور الى أبعد مما وصلت الآن ، اصارحك باني لم اكن خليقاً بعطفك هذا . كان من الواجب عليّ ان اعرفك منذ بدأت زياراتي لمنزلك اني متزوج . فقد عرفت ان طلبة العلم من الهنود يخفون في انجلترا امر زواجهم ، فتابعتهم في هذا . واني لآسف لاني اضطررت لان اخفي عنك الحقيقة طوال هذه المدة . ولكني الآن مغتبط لان الله قد أمدني بشجاعة حملتني على ان اقول الحق وان اصارحك به . فهل لك ان تغفري لي ؟ واني لأؤكد لك باني لم اتجاوز حد الآداب مع السيدة التي تفضلت بان قدمتني

لها . فأني اعرف الحدود التي يجب ان اقف عندها . اما انت ، فلانك كنت جاهلة امر زواجي ، فقد رغبت في أن تتم خطبتنا . ومن اجل اني رغبت في ان لا تتجاوز الامور حدها الذي بلغت اليه ، رأيت واجباً عليّ ان اطلعك على الحقيقة

« اما اذا وصلك هذا وكان شعورك باني كنت غير خليق بأن اوجد تحت سقفك وفي ضيافتك ، فاني أؤكد لك بأن ذلك يسوؤني كل الاساءة . ان لك في عنقي ديناً لا يوفيه عرفان الجميل والشكران جزاء ما اظهرت نحوي من العطف والحنو . فاذا رأيت بعد هذا أن لا تطرحيني واني جدير بكرمك الذي سوف لا آلو جهداً في أن اجعله من نصيبي ، فلا شك في اني اكون سعيداً ، واعتبر ان هذه خاطرة اخرى من خاطرات حنوك وعطفك »

كتبت هذا الخطاب مرات لانتحهُ مرة بعد اخرى . ولكن على كل حال حمل عن كاهلي عبئاً كنت اشعر بثقل وطأته . وفي عودة البريد وصلني الرد فكان فيه ما يلي :

« وصلني خطابك الذي عبرّ عن اخلاصك . ولقد اغتبط به كلانا ، كما اضحكنا كثيراً . فان الحقيقة التي اخفيتها عنا ، ونعتقد أنك أجرمت في اخفائها يمكن العفو عنها . ولكنك احسنت في انك اوقفتنا على حقيقة حالك . وان دعوتي لك ما تزال جارية كما كانت ، وانا لفي انتظارك يوم الاحد المقبل وتشوق الى سماع رواية زواجك وانت طفل لعلنا نسرُّ ونضحك بعض الشيء ونسري عن انفسنا على حسابك . ولست في حاجة لان اؤكد لك ان صداقتي لم تمس من جراء هذا الحادث »

بهذا طهرت نفسي من سرطان الكذب والبهتان . وما ونيت منذ ذلك الحين ان اتكلم عن زواجي كلما سنحت فرصة للكلام فيه

قبل ان تنتهي سنتي الثانية في انجلترا ، بدأت علاقتي باخوين من الآخذين بمبدإ الثيوصوفية — theosophism — وكان كلاهما غير متزوج : وتكلما معي عن اسفار « الغيتا » — The Gita — وكانا في ذلك الوقت مكبين على قراءة ترجمة سير « ادوين ارنولد » لكتابنا المسمى « الاغنية السماوية » ودعياني لان اقرأ الاصل معهما . فشعرت بالخجل لاني لم اكن قد قرأت « الاغنية السماوية » لا في اللغة السنسكريتية ولا في اللغة الجوجراتية . فاضطررت لان اصارحهما باني لم اقرأ « الغيتا » ، ولكني اقرأه معهما بسرور ، وان معرفتي بالسنسكريتية ان كانت « لجة » ناقصة ، فقد املت ان افهم الاصل بحيث استطيع ان اعرف اين عجزت الترجمة عن التعبير عن المعنى . وبهذا بدأت اقرأ « الغيتا » معهما . ولقد اثر فيَّ جانب من الفصل الثاني تأثيراً لا ينسى ، وعلى الاخص المقطوعة الآتية :

« اذا عكف الانسان على حاجات البدن ، فهنالك يبدأ الميل اليها ، ومن الميل تتولد الرغبة ومن الرغبة تتولد نيران الشهوة المفترسة . والشهوة تولد الطيش والتهور ، وبذلك تخون الانسان

الذاكرة ، فيقضي على الاغراض النبيلة ، ويتقوض بناء العقل ، فيفنى الغرض والعقل والانسان »

ولقد ظهر لي ان الكتاب لا يقدر بثمن . وهذه الفكرة التي كونتها في اسفار « الغيتا » ما زالت حتى اليوم تنمو وتتطور في نفسي ، حتى اني لاعتبرها اليوم الكتاب الذي يعرفنا الحق . ولقد امدني هذا الكتاب بأكبر المساعدات في اشد ساعات محنتي حلكة . وقرأت بعد ذلك كل الترجمات الانجليزية التي ظهرت لهذه الاسفار ، فرأيت ان ترجمة سير أدوين ارنولد احكمها وأصفاها . فقد حافظ على الاصل ، مع انهُ صقلها فكانت بعيدة عن روح الترجمة . وعلى الرغم من اني قرأت « الغيتا » مع هذين الصديقين ، فاني لن ادعي اني درستها اذ ذاك . ولكن بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ بدأت احب « الغيتا » اذ جعلتهُ كتابي اليومي

ارشداني بعد ذلك الى كتاب آخر بقلم سير « ادوين ارنولد » عنوانهُ « نور آسيا » . وكنت لا اعرف ان للسر « ارنولد » كتاباً آخر غير « الاغنية السماوية » . فقرأت ذلك الكتاب بلذة واكباب لم اجدها حتى في قراءة الغيتا . وما فتحت الكتاب حتى اختلبني فلم استطع ان القيهُ من يدي . وصحبتها بعد ذلك الى محفل « بلافاتسكي » وقدماني الى مدام « بلافاتسكي » ومسز « بزانت » . وكانت مسز بزانت قد انتمت الى الجمعية التيوصوفية حديثاً ، فتتبعت بكل عناية حديث اعتناقها لهذا المذهب . ونصح لي الصديقان ان انتمي للجمعية ، ولكني رفضت بأدب قائلاً « إنّ معرفتي بحقائق ديني غير تامة ، ولهذا لا أريد ان اتصل باي جماعة دينية » . واذكر اني قرأت بارشادهما كتاب مدام « بلافاتسكي » « مفتاح التيوصوفية » . ولقد كان من أثر قراءتي لهذا الكتاب ما حثني على ان اقرأ كتباً اخرى عن الهندوكية ، خرجت منها بفكرة كامنة في تحامل المبشرين على الدين الهندوكي ، اذ يزعمون انهُ مدخول بالخرافات والأساطير

في ذلك الوقت قابلت نصرانياً مستقيم الفكر في « مانشستر » في فندق خاص بالنباتيين . فتكلمنا في الدين النصراني . واطلعتهُ على ما ثبت في ذهني من اعمال المبشرين في راجكوت . فتألم مما سمع وقال « انا من النباتيين ولا اشرب الخمر . وكثير من النصارى يأكلون اللحم ويعاقرون بنت الحان . ولكن كلا الأمرين غير مسموح به في الاناجيل . ارجوك ان تقرأ « الكتاب المقدس » . فقبلت نصحهُ واعطاني نسخة . ويخيل اليّ ، بقدر ما تسمح بذلك ذاكرتي ، انهُ كان يبيع الكتب المقدسة ، واني اشتريت منهُ نسخة تحتوي على خرائط وفهارس للكلمات وغير ذلك من وسائل المساعدة على مطالعة الكتاب . واخذت اطالعهُ ، ولكني عجزت عن ان اتم قراءة العهد القديم . قرأت سفر التكوين . اما الفصول التي تتلوه فقد بعثت بالنعاس الى جفوني فتثاقلت واخذني الاغفاء . غير اني حملت نفسي على متابعة القراءة لاستطيع ان اقول اني قرأت الكتاب ، فتصفحت الاسفار الاخرى بصعوبة ، وبأقل

ما يمكن أن تتصور من المقة او القدرة على الفهم . وكرهت ان اقرأ سفر العدد

اما العهد الجديد فقد اثر في نفسي تأثيراً مخالفاً كل المخالفة لهذا . وعلى الأخص «موعظة الجبل» فانها وجدت طريقاً مباشراً الى قلبي . ولقد اخذت اوازن بينها وبين الغيتا . وتعلقت بقول عيسى «لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر ايضاً . ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء» . وكان تأثيره في نفسي بالغاً لا يقاوم . وزين لي عقلي الصغير أن أوحد بين الغيتا ونور آسيا وموعظة الجبل

وكان من اثر مطالعاتي هذه ان ولعت بقراءة سير اصحاب الاديان الاخرى . وأرشدني صديقي الى كتاب كارليل «الابطال وعبادة البطولة» وقرأت الفصل الذي عقده في «البطل في صورة نبي» وعرفت منه عن نبي الاسلام العظمة البالغة والشجاعة النادرة وعيشة التقشف والصلابة

وما عدا هذه المطالعات التي دارت حول الدين ، لم اقرأ شيئاً . لان ميعاد الامتحان كان قد قرب وبذلت كل جهدي في الاكباب على الدرس . ولكن اتجه فكري الى ضرورة ان أقرأ عن الدين اكثر مما قرأت في كتب الدين وان ألم بكل الاديان العظمى

وكيف استطيع ان اعرف شيئاً عن الالحاد وانكار وجود الله بجانب هذا ؟ ان كل هندي يعرف اسم «برادلو» — Bradlaugh — والحاده . فقرأت في الالحاد كتاباً نسيت اسمه ، لانه لم يترك اي اثر في نفسي . وكنت اذ ذاك قد اقتحمت مفازة الالحاد . وكانت مسز «بزانت» في ذلك الحين قد انتقلت من الالحاد الى الالوهية ، فقوّى هذا الحادث عدمي الزهد في الالحاد بعد ان قرأت كتابها «كيف اصبحت تيوصوفية» ؟

***

في ذلك الحين مات «برادلو» ودفن في مدفن «ووكوود» . ولقد شهدتُ الجنازة ، كما شهدها كل هندي مقيم في لندن . وكان فيها قليل من رجال الدين ليقوموا بآخر واجباتهم نحو الراحل . وعند عودتنا اضطررنا ان ننتظر في محطة السكة الحديدية مقدم القطار . فتقدم احد زعماء الالحاد من احد رجال الدين وسأله : «أتعتقد يا سيدي في وجود الله» ؟ فاجابه الرجل «أفعل» منخفضاً من صوته . فاجابهُ الملحد وعلى فمه ابتسامة الواثق من نفسه . «أتسلم ايضاً ان محيط كرة الارض ٢٤٠٠٠ ميل ؟ اتوسل اليك ان تعرفني ما هو حجم إلهك وأين هو ؟»

«نعم . لو اننا عرفناه حقاً ، إذن لعرفنا ان مثواه في قلبينا معاً»

— «لا تهزأ بي كما تهزأ بطفل» — قال الملحد هذه الكلمات وفي عينيه نظرة المنتصر الظافر . ولكن رجل الدين احتفظ ازاء هذه النظرة بصمت مهيب

وكان لهذا الحديث اثر في نفسي زادني نفساً في الالحاد وزهداً فيه

هبط انجلترا في ذلك الوقت هندي معروف عمره « نارايان همشاندرا » وكنت سمعت عنه ككاتب. وكنا اول ما تلاقينا في منزل مس « مانينج » وهي من اعضاء الجمعية الهندية الوطنية. واعتدت أن ألزم الصمت التام كلما زرت بيتها فلا اتكلم الا اذا كلمت. فقدمتني الى « همشاندرا » ولم يكن يعرف الانجليزية . بل كان هندامه عجيباً . بنطلون غليظ صفيق ، ومعطف كثير الثنايا متسخ رمادي اللون ، متحرص على الطريقة « الپارسية » ؛ ثم انهُ كان بلا زيق وبلا رباط للرقبة . وعلى رأسه قلنسوة من صوف يتدلى منها زركير ، وعلى صدره تترسل لحية كثة طويلة . كان ضئيلاً قصيراً . وشابت وجهه المستدير ندوب الجدري ، واستوى في وسط ذلك الوجه انف ليس بالدقيق ولا بالغليظ . ومثل هذا الشخص الغريب عليه هذا ، كان مرشحاً لان يزحم جماعات لندن المعروفة باناقتها

كنا نتقابل كل يوم . واتضح لي ان هنالك توافقاً كثيراً بين ما يجول في رأسينا من الافكار وما نعتزم من العمل . وكلانا كان نباتياً . وغالب ما كنا نتعاطى طعام الظهر معاً . وكنت في ذلك الوقت اعيش بسبعة عشر شلناً في الاسبوع واطهي طعامي بنفسي . وكنت احتلف الى حجره آونة بعد أخرى ، كما كان يختلف هو الى حجرتي . وكنت اطهي على الطريقة الانكليزية ، ولم يكن يتقنّ الا بالطهي على الطريقة الهندية . كنت اصنع شوربا الجزر وكان يرثي لذوقي . وعثر مرة على قليل من العدس فطبخهُ وحضر به الى سكني . فأكلتهُ بشوق وشغف ومنذ ذلك اليوم كنا نتبادل ما نطهي . كنت اذهب اليه بالواني النادرة ، وكان يحضر اليَّ بالوانه

كان اسم الكردينال « مانينج » على كل لسان . وكان اعتصاب عمال احواض السفن قد قضي عليه باسرع ما تصور الناس بفضل مساعي « جون برنز » والكردينال « مانينج » . وحدثت « نارايان همشاندرا » عن شكر « دزرائيلي » ومديحه لسماحة الكردينال : فقال « اذن فلا بد لي من ان ارى ذلك الحكيم »

« إنهُ رجل عظيم القدر ، فكيف تتوقع ان تقابلهُ » . ؟

« ولماذا . اني اعرف كيف يكون ذلك . سأجعلك تكتب لهُ نيابة عني فتقول له اني مؤلف واني اريد ان اهنئهُ شخصياً بعمله الانساني ، واني ساصحبك معي كمترجم لاني لا اعرف الانجليزية »

فكتبت خطاباً بهذا المعنى . وبعد يومين او ثلاثة وصلتنا بطاقة من الكردينال مانينج يحدد لنا موعداً . فذهبنا اليه معاً . اما انا فارتديت بزة الزيارات . وبقي « نارايان همشاندرا » كما هو بمعطفه المعروف وبنطلونه الذي وصفت. وحاولت ان اهزأ به، ولكنهُ ضحك مني قائلاً : « انتم معشر المتمدنين جبناء. ان العظماء لا يهتمون بمظاهر الاشخاص. انهم ينظرون في القلوب»

ودخلنا قصر الكردينال . وما ان اخذنا مجلسنا حتى دخل علينا « جنتلمان » نحيف متوسط القامة وسلم علينا يداً بيد . . وهنا بدأ « ناراين همشاندرا » مقولته :

« لا اريد ان اضيع عليك وقتك . فقد سمعت عنك كثيراً وشعرت واجباً عليّ ان احضر اليك لاشكرك على ما فعلت من خير للمضربين . ومن عادتي ان ازور حكماء الدين . ولهذا اضطررت ان ازعجك بزيارتي » وكان يتكلم باللغة الجوجراتية ؛ وانا اترجم الى الانكليزية

فرد عليه الكردينال قائلاً : « اني لمسرور بزيارتك . وآمل ان تكون اقامتك في لندن موافقة وان تتمكن من الاتصال بالقوم هنا . وليباركك الله » ولما اتم هذه الكلمات وقف وودعنا

زارني « ناراين همشاندرا » مرة في قميص ودوقيه [١] كما نلبس في الهند . ولم تكد ربة البيت تفتح الباب اذ قرعهُ حتى ارتدت اليّ مفزوعة :— « رجل بؤسٍ يريد ان يراك » — فسارعت الى الباب وكم كانت دهشتي عند ما رأيت همشاندرا على هذه الصورة وفي هذا الزي . فأُخذتُ . غير ان وجهه لم ينم عن شيء ؛ اللهم الا عن تلك الابتسامة الهادئة التي عوّدناها منهُ

« ولكن الم يهزأ بك الاطفال في الطريق » ؟

« نعم فعلوا . فلما اهملتهم سكتوا »

وذهب ناراين همشاندرا الى باريس بعد ان اقام في لندن بضعة اشهر . وبدأ يتعلم الفرنسية وحاول ان يترجم منها كتباً . وكنت اعرف من الفرنسوية قدراً مكنني من مراجعة ترجمته ، فأعطانيها لاطالعها . وسرعان ما استبان لي انها لم تكن ترجمة بل مادة جديدة

وأخيراً صمم على ان يزور اميركا . وبكل صعوبة استطاع ان يحصل على تذكرة سفر في الدرجة الرابعة . ولما كان في اميركا حوكم لانهُ قليل الاحتشام في ملبسه ، لانهُ خرج يوماً في قميص ودوقيه . واذكر انهُ بُرّىء من هذه التهمة

كان من السهل عليّ ان ازاول مهنة المحاماة في انكلترا . ولكن المرانة كانت غير ميسورة المنال . كنت قد درست القانون كمادة اساسية ، ولكني لم ادرس كيف اتابع الاجراء القانوني. درست مبادىء القانون ، غير اني لم ادرس كيف اطبقها في مزاولة مهنتي

كانت الشكوك تمزق احشائي تمزيقاً خلال درس القانون . فأطلعت بعض اصدقائي على ما ارى من هموم . واقترح احدهم ان الجأ الى « دباباي نابوروجي » في طلب العون والنصيحة. وكنت اشعر بأنهُ ليس من حقي في شيء ان ازعج مثل هذا الرجل العظيم واشغله بنفسي ،

(١) عبارة عن قطعة طويلة من قماش القطن ، تطوى حول الوسط وتغطي الجزء الاسفل من الجسم

على الرغم من اني كنت احمل اليه كتاب توصية من الهند . وما فاتني يوماً أن احضر خطاباً ازمع القاءه : بل كنت اذهب الى المكان واصغي اليه من ركن في الحجرة كنت آوي اليه ، ثم انصرف بعد ان اشبع سمعي وبصري . ومن اجل ان يكون اكثر احتكاكاً بالطلبة اسس جمعية . واعتدت ان احضر اجتماعاته وكنت اسر كل السرور بما ادى من اشفاقه على الطلبة ومن احترامهم له . وعلى مدى الزمان استجمعت شجاعتي وقدمت له كتاب التوصية . فبتدرني بقوله « يمكنك ان تحضر اليّ لتتلقى نصائحي في اي وقت تشاء» ولكني لم احاول ان انتفع قط من وعده هذا بشيء

ولقد نسيت الآن ان كان صديقي هذا بعينه هو الذي قدمني الى مستر « فردريك بنكت» — Mr Frederick Pincutt — كان من حزب المحافظين ، ولكن عطفه على الطلبة الهنود كان صافياً ومن غير شائبة . ولقد سأله كثير من الطلبة النصح والمساعدة ، وسألته بدوري ان اعطي بموعد ، فلم يبخل به . ولن انس ما اعيش هذه المحاورة . فلقد رحّب بي كصديق وهزأ بتشاؤمي قائلاً : « كن على يقين من انهُ ليس بشيء غير عاديّ ان يصبح الانسان محامياً ذا مرانة وحذاقة . فالامانة والعمل كافيان لان يجعلاه يعيش . وليست كل القضايا مرتبكة الاجزاء كما تتوهم . ولكن عرفني ما هي معلوماتك العامة ومطالعاتك »

فلما اطلعته على مقدار معرفتي ، وهي ضئيلة ، رأيت انهُ امتعض . ولكن امتعاضه لم يستمر اكثر من دقيقة وسرعان ما اشرق وجهه بابتسامة مرضية وقال :

« لقد فهمت السر في اضطرابك . ان معلوماتك العامة ضعيفة . انك قليل الخبرة بالدنيا . والدليل انك لم تقرأ حتى تاريخ بلادك . ان المحامي يجب ان يدرس الطبيعة البشرية ، وواجب على كل هندي ان يُلِمّ بتاريخ الهند . وليس لهذا من علاقة بمزاولة مهنة المحاماة . ولكن ينبغي لك ان تعرف هذا . واتضح لي انك لم تقرأ شيئاً مما كتب « كاي » او « ملِيسون » عن تاريخ العصيان في الهند . الجأ الى هذا في الحال ثم اقرأ كتاباً او كتابين في الطبيعة البشرية »

شعرت باني مدين باكبر دين لذلك الصديق الذي أمدني بهذه المساعدة القيمة . على ان نصيحة « بنكت » ان كانت لم تفدني فائدة مباشرة ، فاني استمتعت بصداقته مما خيل اليّ ان انال من فائدة بنصحه . وان وجهه النَّضِر البسوم ما يزال حيّاً في مخيلتي ، وما زلت اعتقد ان الكفاية العليا ليست ضرورية لكي يكون الانسان محامياً ناجحاً في الحياة . فالامانة والاكباب على العمل يكفيان . ومذ كان لي في الحياة نصيب من هاتين الصفتين شعرت باني حققت قوله فلما اجتزت الاختبار النهائي في القانون ، انقضت مدة اقامتي في انجلترا

اسماعيل مظهر